تمثلات الخطاب الاجتماعي في رحلة نورالأندلس لأمين الريحاني

Representation of social discourse on the journey of Nour Al-Andalus by Amin Rihani

د: محمد سرير*

تاريخ الإرسال: 16 / 02 /2020	تاريخ القبول: 2020/06/09	تاريخ النشر: 2020/12/30

الملخص

قام الرحالة أمين الريحاني بعدة رحلات من بينها رحلة نور الأندلس التي خصّ بها بلاد الأندلس، والتي حاول فيها الجمع بين ماضيها وحاضرها، فقد انعكست صورته على كل النواحي الانسانية والاجتماعية، فقد وصف العمران والمدن وأهم العادات والتقاليد، كما ذكر الجنس البشري وحاول دراسة تركيبته النفسية والدينية، كما لم يفته تحليل العلاقات الاجتماعية التي تجمع المجتمع الأندلسي.

من الركائز الأساسية لأي مجتمع نجد عنصر العمل أو ما نسميه بالعنصر الاقتصادي الذي أولاه الرحالة اهتماما كبيرا فذكر أهم الأعمال المتمثلة في الزراعة والصناعة كما وضح أثر اليد العاملة التي يتقاسمها الرجل والمرأة، كما أولى الرحالة جانبا مهما لصورة المرأة التي عدّها في كثير من خطاباته،ركنا أساسيا في التركيبة الاجتماعية محددا دورها في مختلف الوظائف العملية، فكان بذلك القناة التي تربط بين الزمن الرحلي وزمن القراءة.

الكلمات المفتاحية: الرحلة، المجتمع، الرجل، المرأة، الخطاب، العمل، الصورة، الأنا، الآخر.

abstract

The traveler Amin al-Rihani made several trips, among them the journey of Nour al-Andalus in which he singled out the country of Andalusia, in which he tried to combine its past and present, as his image was reflected in all human and social aspects, He described urbanization, cities, and the most important customs and traditions, as he mentioned the human race and

المؤلف المرسل: محمد سرير serirrmohamed_2017@yahoo.com

* **كلية الآداب واللغات جامعة المدية** serirrmohamed_2017@yahoo.com

tried to study its psychological and religious composition, he did not miss the analysis of social relations that unite Andalusian society.

One of the main pillars of any society is that we find the work component or what we call the economic component that travelers have given great attention to. He mentioned the most important works of agriculture and industry, as he explained the impact of the labor force that men and women share.

The traveler also gave an important aspect to the image of the woman, whom he enumerated in many of his speeches, a basic pillar of the social structure, specifying her role in the various practical functions, and that was the channel that links the time and reading time.

***key words**:The journey, the society, the man, the woman, the speech, the action, the image, the ego, the other.*

- **مقدمة**

يعمل الرّحالة على رسم صورة مستوحاة من خياله المركب، من محاكاته للبيئة الأندلسية، وما يمتلكه من تجربة في الكتابة تسمح له بأن يصف لنا فضاء اتسم بتغيرات اجتماعية، شملت المدينة والممارسة البشرية للعمل الزراعي والصناعي، كما لا ينسى المرأة التي يصورها كعامل أساسي في التنمية البشرية، بما تكتسيه من ممارسات في العمل ومصاحبة للرجل في بيته، محاولا وضع مقارنة بين ثقافة المرأة المحلية والأجنبية.

إن التأمل في المجتمع الأندلسي يظهر أن أغلبية سكان الأندلس تمثلت في العرب، أصحاب الفتح، فقد استفردوا بالحكم وباكتساب الأراضي الخصبة الشاسعة، في أكبر مدن الأندلس كاشبيلية وقرطبة وغرناطة وطليطلة، كما يمكن ملاحظة ذلك التأثير المتبادل بين العرب والبربر والقوط، والأندلسيين الأوائل، فقد حصل هناك تزاوج وتبادل للصنائع ولشكل البنايات ((فمنذ القرن الثالث الهجري على وجه التقريب أو بدءا من القرن الرابع بالتأكيد، أصبح هناك عدد من السكان المسامين الاسبانيين يشكلون بعد أن تكيفوا في موطنهم الجديد، نواة هامة في مجموع أهالي البلاد العام الخاضعين للإسلام، هذه النواة كانت تتزايد باطراد سواء بالمؤمنين الجدد أو من جراء تيار الهجرة المتدفق نحو شبه الجزيرة، الذي يستمر طويلا يجذب الراغبين فيها أو المكرهين على النفي إليها))[1].

إن طبيعة المجتمع تفرض على الرحالة نمطا من التفكير الذي يساعده على الوصول إلى تحقيق أهدافه، ما يجعله يحاول تقريب فكره من فكرهم حتى يقيم همزة وصل بينهم، واضعا جسرا تآلفيا للحوار، كما يجب عليه إدراك تاريخهم وفهم متطلباتهم وآمالهم، كي يستطيع تكوين صورة عامة تسمح له بممارسة الكتابة.

1. صورة المجتمع الأندلسي:

نجد العرب في اسبانيا فاعلين ايجابيين، وذلك بسبب مبدئهم المعروف بعدم العنصرية والتفرقة بين العباد، خاصة الذي دخل في دينهم أصبح منهم، له ما لهم وعليه ما عليهم، وتاريخ الأندلس شاهد على هذا، ومثال ذلك نرى أين وصل شأن البربر، وأين وصل المولدون، والمستعربين، حتى إن منهم من بز أقرانه العرب في لغتهم و أدبهم و فكرهم، وحسبنا في ذلك الأديب والفيلسوف ابن حزم الأندلسي.

ونجد جنس المولدين الذين ولدوا بالأندلس بتزاوج العرب من الاسبانيات، وقد كان هذا نتيجة حتمية لاندماج شعبين مختلفين دينا ولغة وفكرا، لكن جمع بينهما الواقع الاجتماعي الداعي إلى المصلحة المشتركة، التي تفرضها الحياة الرامية إلى تحقيق السلم الاجتماعي،رغم ما قد يخلفه من فساد في السلالة الملكية، ويوضح الريحاني هذه الصورة قائلا: ((وهناك أسباب أخرى لضعف العرب، وفساد أمرهم، منها التسري وما يخلفه في الحريم وفي الأمة وفي الملك، من مشاكل واضطرابات وفتن، ومنها في ذلك الزمان تزوج المسلمين بالمسيحيات، وقد شاع شيوعا ذريعا خصوصا في قشتالة وأراغون فنشأ في البلاد صنف من الناس سمو المولدين، وهم المولدون لكل ما فيه اضطراب وفساد في الهيئة الاجتماعية وفي السياسة والدين، ما كان أولئك المولدين من الذين آمنوا ولا من الذين كفروا، بل كانوا إمّعات حطابين في كل واد معفرين في كل كرمة وحصاد، وشر المولدين على الأمة مولد في البيت المالك فان تقلد الحكم كان ضعيف الهمة والرأي مراوغا متذبذبا وإن تقلده أخ له أو ابن عم كان مثيرا عليه الفتن طمعا بمنصبه))[2].

يصور لنا الرحالة صورة لجنس بشري نشأ من تزاوج المسلمين بالمسيحيات، ما نتج عنه ما سمي بالمولدين، فالرحالة يضع القارئ أمام صورة مباشرة وحادثة واقعية، شهدها التاريخ متتبعا في ذلك أسلوب الإقناع المؤسس على إقامة الحجة، محاولا وضع ميثاق مع القارئ، يجعله متتبعا لسرده ومتنبها لما يطرأ عليه من أحداث ومتغيرات.

فالرحالة يضع القارئ في موضع المستقبل للخطاب، واصفا الآخر بما توفر له من معطيات قبلية وبعدية، ((كما أن حضور الاجتماعي وما يتضمنه من تأثيثات مكملة لصورة الآخر من سلوك وعلاقات، ينظر إليها الراوي متراكبة غير مفصولة، رغم ما قد تفرزه من تعدد يقود بدوره إلى التنوع في التقديمات بين القبول والرفض، بين الانسجام والاختلاف، فيصبح منظور التقديم قيميا يطرح إلى جانبه أسئلة محايثة عن جوهر الآخر وطبيعته))[3].

كما تضمن الخطاب الرحلي مكونات المجتمع الأندلسي، الذي تميز بالتنوع البشري فأرض الأندلس كانت محطات لكثير من الشعوب، وقد يرجع ذلك لملاءمة المناخ، وتقارب الأفكار والمصالح لهذه الأجناس، كما نجد عنصر الصقالبة الذين جلبوا من قارة أوربا كأسرى، كان لهم دور مهم في الحياة الأندلسية ومشاركة هامة في بناء وهدم الأندلس المسلمة، يقول الريحاني عن هذه الأجناس ((نشأ في طليطلة جيل من الناس يتكلمون باللسان العربي، ويكتب النابغون الكتب وينظمون القصائد باللغة العربية، فآكلوا المسلمين وشاربوهم، وشهدوا أنهم من خير الناس، وبما أنهم لم يشهدوا غير ذلك سمو موزاراب (MOZARAB) أي مستعربين، انعقدت عرى الولاء والإخاء بين جميع سكان طليطلة في ذلك العهد العربي السعيد الذي دام ثلاثمئة وخمس وسبعين سنة، منقطعا طبعا في سعده تقطع حبل الخير في الإنسان))[4].

يشير الرحالة إلى صفات الشخصية الأندلسية، التي اتسمت بالتعدد والتنوع الناتج عن التنوع الثقافي والجنسي، فقد كان المجتمع الأندلسي مزيجا من الاسبان والقوط والعرب، لذا نجد الاختلاف في الممارسة الاجتماعية، هذا ما رام الرحالة التنويه به وحمل القارئ على هذه المتغيرات حتى يخلق جوا من المتعة في القراءة محققا بذلك الوظيفة الإمتاعية للسرد.

كما يعتبر الرحالة قناة ناقلة للمعرفة فهو بصدد تقديم معلومات عن زمان ومكان يجهلهما الكثير من القراء، فالرحلة ((وثيقة جادة ونص مفتوح، الهدف الأساس منها هو إعطاء معلومات ونقل معرفة إلى القارئ الذي يشارك الرحالة النسق))[5]، التعليمي حيث تزداد معرفة المتلقي، من خلال ما تسمح به ثقافة الرحالة.

2. **الزراعة في الأندلس:**

قد اهتم الرحالة بالجانب الزراعي للمنطقة، بصفته أساسي وفعال في الحياة الاجتماعية، كما تعتبر هذه المهنة من المقومات الأساسية للحياة البشرية، إضافة إلى هذا ملاءمة المناخ الذي يسمح بزراعة أنواع الحبوب والأشجار، ونجد عامل وفرة المياه الذي عمل على ازدهار الزراعة، واليد العاملة التي استفادت من هذه الثروات، وعملت على تسخيرها لفائدتها، هذا ما أدى إلى إنشاء الجنان بالقصور كقصور قشتالة ((ثم محطة صيد لملوك قشتالة، فشيدت فيها القصور، وغرست الحدائق، بكل نادر من الشجر والزهور، وهي لا تزال مشهورة بحديقتها الغناء، وبطيورها الفريدة، خصوصا القبّرة))[6].

كما يوجد بالأندلس الوادي الكبير الذي يساهم بقدر كبير في اتساع رقعة الفلاحة، فهو مشابه لنهر النيل في مصر، لهذا تكثر الزراعة على طرفيه، كما يستغل للملاحة وللتجارة، ((وإن الوادي الكبير هذا لأكبر نهر في اسبانيا بعد نهر إبرة، فهو ينبع في جبال قزرولا (KAZAROLA) ويجتمع إليه أنهر عدة صغيرة، تجري من سفوح جبال مورينه، أعاليه هائجة صاخبة، ولكنه يصل إلى قرطبة هادئا، ويجري في البسائط متسعا مرتاحا فيصلح للملاحة منها على خليج قادش فالبحر الأطلنتيق))[7].

يحيلنا الرحالة على جانب مهم في الحياة الاقتصادية، إنه الجانب الزراعي والذي يراه يمتاز بكثير من الشعبية، حتى أنه يشير إلى طبقة الملوك الذين اهتموا بهذا الجانب، كما يذكر أسباب قوته واستمراريته بمصدره الأساسي إنه الماء، المتمثل في الوادي الكبير، وحتى من حيث البناء السردي نجد الرحالة يقدمه على الصناعة بصفته أول ممارسة للإنسان.

وقد كان اعتماد أهل الأندلس في زراعتهم على أدوات تقليدية رغم وجود الآلات الحديثة، وقد يرجع هذا إلى عدم توفرها في الأرياف، كما نلمس تلك العلاقة التي تربط الإنسان بماضيه، وتعامله مع الحيوان الذي يعتبر مرافقا له في حياته، ((وفي هذه الأرض حياة زراعية اجتماعية قديمة العهد، رأينا النساء يحملن على رؤوسهن الجرار، وقد ملأنها من العين كأنهن لبنانيات أو فلسطينيات))[8]، إن عين الرحالة تعمل دائما على المقارنة بين ما يمتلكه من ثقافة سابقة، وما يستقبله من ثقافة حاضرة، التي يصور فيها مشهدا جديدا للنساء اللواتي تعملن في الأرض فتقمن بالحصاد بالمنجل، مرافقات في ذلك الرجل مما ينبئ على اجتهادها، ودورها في المجال الاقتصادي للأسرة.

هي الطبيعة التي تلامس فؤاد الرحالة، التي تظهر لنا أدبيته ورومنسيته، فنراه يجمع بين رهافة الحس وبراعة التعبير، يصف مكانا بين اشبيلية وقرطبة، يراه أجمل بقعة في الأندلس، فما سر هذا الجمال؟ يجيب الريحاني: ((إن أجمل بقعة في الأندلس، هي التي بين قرطبة واشبيلية، كنا نرسل النظر في الآفاق البعيدة المشرقة، والأرض بيننا وبينها تتموج ألوانا بما في حقولها ورباها من البقع المزروعة والمحصودة، البقع الخضراء والحمراء والذهبية والبنية وهناك الأراضي التي تهبط وتعلو برفق ورشاقة، فتبدو كالأراجيح وقد غرست بالزيتون صفوفا كأنها العمد في الجامع الكبير، أو صفوفا من الجنود جنود السلام، هي ذي الطبيعة في مجدها ولطفها و حسنها وسكوتها و ثمارها))[9].

إن ثقافة الزراعة بالأندلس كان لها أثر واسع في ذهنيات شعبها، فقد عملوا على إنجاحها وكانت مصدرا للرزق وللتجارة، نلمس ذلك التزاوج بين الأرض والمدينة، حيث نجد بينهما علاقة تكامل وترابط، تنم عن فكر علمي، يسمو بالإنسان إلى بناء حضارة قوامها التفاعل بينه وبين الطبيعة.

3. الصناعة :

إلى جانب الزراعة نجد الصناعة التي تكمل الجانب الآخر من الحضارة، تلك الصناعة التي يسخرها الفرد لخدمة حاجياته، مستمدا موادها الخام من محيطه الحاوي للمعادن

والخشب والحيوان والنبات، وإذا ما تفحصنا بلاد الأندلس لألفيناها ذات ميادين صناعية شتى، خاصة إذا رجعنا إلى عهدها العتيد، حيث القصور والنافورات والجوامع، وحسبك في ذلك قصر الحمراء بغرناطة، والجامع بقرطبة.

هذا الجامع الذي شاع منه نور الأندلس، وتاريخ الإسلام وبراعة المساكن، هذا المعلم الثقافي والديني عرض للهدم والتخريب من طرف النصارى الذين اعترفوا بأهميته بعد ذلك، ((روي أن الملك شارلس الخامس قال يوم زار الجامع مع أن استولى المسيحيون عليه، لو كنت عالما بما زعموا على عمله لما آذنت به، لأن ما بنيتم موجود في كل مكان، أما ما هدمتم فمنقطع النظير في العالم))[10]، هذه شهادة حية على عظمة الجامع الذي ضم الروافد المنقوشة الملونة، والقناديل النحاسية التي تنور الجامع والتي لم يبق منها إلا قنديل نحاسي واحد وهو داخل الكنيسة.

يستعين الرحالة في خطابه على النسق التاريخي معتمدا على آلية الرواية والسماع، فهو قناة ناقلة للمعرفة حسب ما توفر من أدوات، وهو في ذلك يحاول وصف الآخر الموجود بأرضه ومحاورة المستقبل من خلال القارئ الذي يروم رضاه، محاورا فكره، الذي يريده أن يكون فكرا منفتحا على الآخر، فالرحالة يسير في رحلته على هدف رسمه منذ البداية وصرح به في بداية الرحلة أنه يريد الوحدة الإنسانية، فهو واسطة بين شعوب مختلفة في أزمنة متعاقبة.

كما تزخر بلاد الأندلس بالمناجم كمنجم النحاس بجوار شريش[11]، ((إننا الآن في الطرف الجنوبي الغربي من الأندلس السفلى، حيث كذلك المناجم والمرافئ التاريخية ففي جوار شريش في شمالها الغربي سان لو كارده باراميدا(SANLVCARDO BARAMIDA)، التي يصب الواد الكبير في برزخها، المتصل بالبحر، فقد كان ميناؤها عامرا في الماضي يجاري ميناء قادس، ومنه سافر كولمبوس سفرته الثالثة إلى أمريكا، ومنها بحر ماجلان (MAGELLAN)، ليرحل رحلته 1519 حول الأرض))[12].

إن وفرة المناجم والموانئ، لدليل على وجود حركة صناعية وتجارية داخل المجتمع الاسباني، هذا إضافة إلى صناعات أخرى كالنسيج والجلود والروائح والأخشاب، التي كانت تنحت لتزين بها الكنائس، ((أما الخشب المحفور على وفره وأنواع فنه في هذه الكنيسة، فهو دون الفن العربي الذي نشاهد في القصر أمثلة منه رائعة))[13].

من هنا جاء حلول الخبر الاجتماعي الذي يعد نواة فعل السفر، ونستطيع القول أن السفر هو مجموع الملاحظات التي يلتقطها الرحالة من خلال تنقلاته في المكان والزمان، محاولا في ذلك تحريك ذاكرته، ومزجها مع ما هو آني، ليخرج بمقارنة بين ذاته والآخر، قابلا لما وافقه، ورافضا بشكل فني ما خالفه ((فالخبر الاجتماعي هو سجل ثري بالتقاط الظواهر والعادات وبعض التقاليد، التي ينظر إليها الرحالة الراوي من منظوره ويرصد من خلالها كل ما هو غير مألوف من سلوكيات ومعاملات، كما يجنح إلى التصوير بنبرة استحسانية أو انتقادية مع ما يصحب ذلك من سخرية وتعليق ووعظ وتمثيل))[14].

يواصل الرحالة نقل مشاهداته فيخبرنا عن الكنائس المتكونة من الفولاذ والنسيج، حيث كانت هناك مصانع للفولاذ والنسيج بطليطة، كما نجد صناعة السلاح التي كان لها دور كبير في حروب اسبانيا، سواء على مستواها الخارجي مع دول الجوار، أو في حربها الأهلية، ((ومما لا ريب فيه أنه كان أسعد زمان من أزمنة هذه المدينة فازدهرت فيها الثقافة العربية، والعبرية وشيدت فيها صروح للعمران، فتعددت أنواع النسيج وتجددت مصانع الحديد والسلاح))[15].

إضافة إلى الكنائس يذكر الرحالة ما كان يحدث بداخلها من طقوس دينية تمثلت في الإعداد لعيد أو مهرجان شعبي كبير، حيث نجد بهذه الكنائس عدة مواد دلت على وفرة الإنتاج وتنوعه، ((في الكنائس ضجة، في البيوت والمخازن ضجات، فالشمامسة ينظفون تماثيل القديس والقديسات، والكهان يخرجون الحلي من أسفاطها والخدم يزيلون الغبار عن الأثواب التاريخية والصور، والنجارون يبنون السدد والهوادج، والنساء يملأن القماقم

بماء الورد، والبنات ينظفن أكاليل الزهور وبائعوا السمك يجلبون القناطير من القريدس، ومعامل البيرة تضاعف إنتاجها))[16].

يخبرنا الرحالة عن وظائف العمال كل حسب تخصصه، حيث يصف هذا المشهد الذي يراه غريبا، فهو لم يشهد مثله، فقد كان فضاء المهرجان يشمل الشوارع التي يجب أن تتزين وكذلك البنات، فالرحالة يوسع نظرته وسط فضاء متعدد الأشكال والرموز، يوحي بثقافة شعبية تمتد في ممارستها إلى جذور تاريخية.

4. المدينة

إن وصف المدن من اهتمامات الرحالة، ويعتبر من مميزات السرد الرحلي، حيث يصف الرحالة كل ما يراه ذا أهمية كالقصور والحدائق والمزارع والبيوت، كما تعتبر المدينة مجمع لشرائح اجتماعية متباينة، نجد فيها السيد والعبد، الغني والفقير، العالم والجاهل، العامل والعاطل، الحاكم والمحكوم، الكل يتفاعل مع بعضه البعض، مكونا ما يسمى بالمجتمع، هذا الأخير الذي يعطي الحياة للمدينة، فيكسوها بالعمران، ويزينها بالحدائق حتى تكون ملاذه في الفرح والحزن، وحصنه الأمين إذا ما بادره بلاء.

أ. اشبيلية:

من أبرز المدن الاسبانية مدينة اشبيلية هذه المدينة التي يشبهها الريحاني بالمرأة التي تفتن بزينتها وتقيد بحبها، المتقلبة المزاج، قد ترضي فتحسن، وتجازي بالضعف، وقد تغضب فتعاقب أيضا بالضعف، فهي ذات أحوال وأهوال.

((هذه المرأة هي اشبيلية سيدة الشقيفات، وبنت الكنيسة، وربة الخصب والمتع، ترقص فنسمع الدنيا صوت خشيباتها، وتصلي فتردد صلواتها المدن والقرى، فهي الأم وهي الابنة وهي فتنة العاشقين، تضع المشط الرفيع العريض التاج في شعرها، وتهز رأسها غنجا ودلالا، تفتل خصرها إذ تسكت الخشية بيديها، فتنفتح طيات فستانها، وتنتشر منه الأماني والصدود، ثم تضرب الأرض برجلها فتنصت إليها قلوب الرجال))[17].

يجمع الرحالة بين صورتين مستخدما في ذلك مخيلته، حيث أسقط صفات الراقصة الاسبانية على جمال مدينة اشبيلية، فزاوج بين المعنوي والمحسوس في بناء الصورة ((إذ أن خبرة التشكيل الأدبي والجمالي هو أساس القدرة التخييلية المتنامية في الإبداع الأدبي وهي التي تذيب مادة الحياة وتعيد تقطيرها وتحويلها إلى أشعة الضوء اللعوب في الفن))[18]، فالتخيل الأدبي هو قاعدة الكتابة التي تسمح للأديب بالتعبير عما يحيط به، واضعا أمامه مجموعة من الفواعل السردية تتحكم في كتابته متمثلة في الأنا والآخر والقارئ، إضافة إلى العامل الاجتماعي والسياسي والديني.

ومما يبدو أن اشبيلية مدينة ذات صروح وقصور وحقول، إضافة إلى ذلك ما كان بها من علماء وفقهاء وشعراء، ومن هؤلاء الشعراء المعتمد بن عباد، الذي ذاع صيته ونما ثراءه، إلى أن حلت عليه الفاجعة على يد يوسف بن تاشفين، الذي نفاه إلى أغمات بمراكش، وبقي بها إلى إن وافاه الأجل، كما تعد اشبيلية مدينة للكنائس، حيث تمارس فيها الشعائر الدينية، طلبا للراحة النفسية، المتمثلة في التسليم لقدرة الخالق، والاعتراف له بالذنب، فيكون الغفران الذي يرومه الاسباني وهو بداخل ضمن المهرجان الأسبوعي، المتجه إلى الكتدرائية التي توجد بها تماثيل لأشهر الرسامين، تلك الرسوم التي تحقق لهم جوا من العبادة، في رؤية أبطالهم وقداسهم عليها، ((هي اشبيلية تتأهب لمهرجانها الأكبر، مهرجان الأسبوع المقدس المهرجان المنقطع النظير في العالم المسيحي، بل في العالم أجمع، فمن أحد الشعانين، إلى أحد الفصح، تغدو اشبيلية بأجمعها مهرجانا حافلا باهرا، يستمر أسبوعا كاملا، هو أسبوع الآلام عند نصارى الشرق، والأسبوع المقدس عند الأوربيين))[19].

إنه أسبوع الآلام والأسبوع المقدس، الذي يسبق عيد الفصح وهو احتفال بخروج عيسى عليه السلام، من القبر، ورمزوا إليه بيوم الأحد، وبما أن معظم الجماهير تكون فيه لأنه يوافق عطلتهم، التي تكون بسببه، فهم يجدون فيه لذة ومتعة يناجون فيه الرّب، حسب طريقتهم ويقدمون القرابين ليغفر لهم، ويتطهرون من ذنوبهم، ليسكنوا عند موتهم الملكوت.

كما يصف لنا الرحالة مهرجانا آخر متجه إلى ربة العيد، والتي تدعى أيضا الحمامة البيضاء، الواقعة بقرية مريسما، التي تبعد خمسين كيلومترا عن اشبيلية، ((والسيدة ربة العيد تدعى عذراء الظل أو الندى، ومركزها في مريسما، وهي قرية خارج اشبيلية على خمسين كيلو متر منها، وربة العيد تدعى كذلك الحمامة البيضاء، فيقام لها مهرجان يليق باسمها الطاهرين، مهرجان يدوم ثمانية أيام))[20].

يركز الرحالة على عنصر الممارسة الدينية التي يضعها ضمن العادات الواجب الحفاظ عليها، كما أنه يعمل على تبليغ معرفة عن الآخر فهو بهذا يبين ((أن الأدب يزودنا بنوع معين من المعرفة أو البصيرة بالواقع الذي صدر عنه، ويركز اهتمامه على علاقة هذه المعرفة بالصور الأخرى التي تقدمها مختلف المعارف الانسانية عن المجتمع))[21]، فالأديب هنا جمع بين الأدب وعلم الاجتماع، دارس للعادات وللأحاسيس، معبرا عنها بأسلوب جميل.

هذه الحركة المستمرة في سكان اشبيلية، هي ما أعطى لها صورة خاصة جعلتها تحتل المراتب الأولى للمدن الإسبانية، فتجد لها الجوّ الطبيعي والمهرجان الأسبوعي، والعمران الدال على ثقافة عريقة، والكنيسة الدالة على دين متبع، له قوانينه وقداسه، ونجد عند الرحالة وصفا قائما على تمازج الألوان التي تجد في النفس فسحة وفي العقل مدرسة، فهيم فيها الزائر، وتجود لها الأقلام وصفا وتعريفا، فقد واكبتها حضارات متباينة، وكل أضاف إليها لمسة خاصة عبرت عن زمن معين وفكر خاص، ((إنما تختلف اشبيلية عن سائر المدن، بلطف مزاجها وتقلبه، وشدة هواها على الدوام، هي روح مركبة من أرواح مختلفة متعددة، صاخبة الألوان، حمراء حتى الأرجوان، صفراء حتى الذهب، زرقاء حتى اللازورد، خضراء حتى الزمرد، فهي الرافضة وهي القديسة وهي المحسنة، وهي العاتية القلب))[22] ، يحاول الرحالة أن يحمل القارئ إلى زمان الرحلة، ليعيش معه نفس اللحظات التي كان يعيشها وهو يجول المدينة ويتأمل في عمرانها، ويشاهد أفعال سكانها، فنراه يحمل القارئ على التخيل ويعينه بوسائل الربط حتى تكتمل له الصورة.

ب. طليطلة:

يواصل الرحالة مساره الرحلي الذي خطه منذ بداية الرحلة، وتعد هذه المنطقة منطقة عبور ضمن هذا المسار، ومن المؤكد أن الرحالة قد وضع تساؤلات وافتراضات يريد الإجابة والتحقق منها، وأول شيء قد يراوده هو الشكل الخارجي للمدينة فيصفها قائلا: ((مثل لنفسك نجدا من الأرض ثمانمائة مترا فوق سطح البحر فيه ضلوع وتجاويف، هي منازل المياه ومجاريها، وبطاح شاسعة بينها مزروعة قمحا، مغروسة زيتونا يحيط بها عند الأفق هلال من الجبال العالية، ثم مثل في وسط ذلك النجد راية صخرية تعلو مئة متر عن مستواه، يجري عند سفحها ويكتنفها نهر نشيط ضحاك هو الطاخوس، فتتصل صخور ضفتيه العاليتين بالصف الأول من الحجارة المرسوخة المتراصة على تلك الرابية، وقد تخللها خطوط وحروف رفيعة، معوجة كالضلال الممدودة المتقطعة، هي ذي طليطلة بأسواقها وساحاتها وبيوتها المزدحمة، وهي طيطلة في بيئتها الجغرافية))[23].

يرسم لنا الريحاني صورة لطليطلة، فهو قد اكتسب معرفة من خلال تجربته الرحلية، فالسفر عنده يعبر عن ((لحظة ثقافية معروفة جيدا هي لحظة التقاء الإنسان مع العالم الخارجي، وسيطرته عليه، ورهانه الدائم على إمكانية تحويل المجهول إلى معلوم مفهوم))[24]، فهو الرحالة الذي يجول بجسده وفكره مشاهدا ودارسا ومؤرخا ومقارنا، واصفا بعين ترى الواقع من أبوابه الواسعة محاولة ربط السكان بمحيطهم الثقافي والاجتماعي والسياسي والديني والتاريخي، فالرحالة دارس لوضعيات الشعوب عاملا بمبدأ المقارنة، واندماج الشعوب المختلفة في البلد الواحد.

قد عمل العرب المسلمين على بناء طليطلة بما يحفظ لهم الحياة، ويمهد لهم بناء حضارتهم، فكانت بذلك المساجد والمدارس والمعاهد، ولم يحرموا غير المسلم من التعليم والتداوي، ممن كان معهم كأهل الذمة واليهود، وهكذا انتشرت العربية وصار حتى الإسبان يتكلمونها، ما خلق تآخي بينهم، فكان لذلك للعرب حسنة يذكرها التاريخ ((ومما لا ريب فيه أنه كان أسعد زمان من أزمنة هذه المدينة، فازدهرت فيها الثقافة العربية العبرية، وشيد فيها صروح للعمران، فتعددت أنوال النسيج، وتجددت مصانع الحديد والسلاح، فازداد

عمران طليطلة، وبلغ عدد سكانها مئتي ألف نفس، طليطلة السعيدة بنت قرطبة السعدي، وبعد ذلك؟ لكل شيء إذا ما تم نقصان !))[25].

قد جمعت طليطلة بين جنباتها أقوام عاشوا متكاتفين في رغدها، إلى أن آن أوان الفراق، فهام كل واحد منهم إلى وجهة معينة، مختارا مكان يأويه من شر الحرب وشر الأسر، وهذا هو النقصان فلا حضارة دائمة ولا استقرار، يكوّن الرحالة صورة ((تمثيلية فردية أو جماعية، حيث تدخل عناصر ثقافية وعاطفية موضوعية وذاتية))[26]، فقد ذكر العمران وما عاينه من زراعة وصناعة، ومعاملات انسانية، خاطب فيها الذات والآخر كما حاور الماضي والحاضر، فقد أصبحت تعرف طليطلة بروما اسبانيا، كأنها امتداد للإمبراطورية الرومانية، في بطشها ((وأمست طليطلة تدعى "روما اسبانيا"، فاشتهر فيها أصحاب الأرجوان ذوو القلنسوة منهم، وذوو العراقية الحمراء، الأساقفة والكرادلة أولى الأمر والنهي، فكانوا دولة ضمن دولة، فأنشأوا المدارس وأسسوا المستشفيات، وعمروا الجسور والحصون، وجددوا في الناس النعرة الدينية الخبيثة))[27].

يحلل الرحالة صورة اجتماعية دينية تمثلت في الصراع بين المسيحية والإسلام، حيث عاد أهل الصليب للانتقام من المسلمين، هو صراع عن القومية وعن الهوية، إلا أننا نراه يصبغ على الأساقفة صفة الإعمار والبناء، لكنهم أشعلوا نار الفتنة، هي صورة جمعت الذاتي والموضوعي، لتكون بذلك الرحلة ((وسيلة للمعرفة وانفتاح على العالم، وتجربة فردية، ودعوة للكتابة))[28]، هي الكتابة التي تفرض نفسها على الرحالة، ونستطيع القول أنها الدافع الأساسي للرحالة الأديب لما تحققه له من يقينية الوجود، ودرامية الحدث الاجتماعي، واثبات للذات مقارنة بحضور الآخر، كما تبعث فيه روح البحث ما يجعل الهدف من الرحلة في حالة تمدد مستمر، يتجدد في كل مرحلة ومع كل مقابلة لشخصية جديدة.

((وطليطلة اليوم هي المدينة الإسبانية الوحيدة التي لا زال طابعها العربي سليما في شكله القديم، لا جديد في بناء طليطلة، ولا تجدد في حياتها بيوتها عالية واجمة، ذات أبواب ضخمة مصفحة بالحديد، بخوخات تذكر بأبواب القلاع والقصور، وبحلقات دقاقات

طريفة الأشكال، وبنوافذ تفتح على الصحن لا على الجادة، وأكثر تلك الجادات لا تأذن لغير الأرجل البشرية أن تطأ حجارتها، وأرجل أشباح الماضي كذلك، فيسود فيها على ازدحامها سكون رهيب هو الماضي يجيبك صامتا، وقد يهمس في قلبك باللسان العربي كلمة حنين وأسى من وراء خوخة مفتوحة، تنيرها عين نجلاء أو من خلال الدقات لحلقة صقلتها أيدي الطوارق والطراق))[29].

نلمس ذات الرحالة التي تحن إلى الماضي وإلى عروبتها، كما نراه ينفي عن المدينة التطور الذي مس باقي المدن، وقد يراه نقصا في التحضر التمدن، فالرحالة يوظف النسق التاريخي ليلامس ذات المتلقي خاصة إذا كان عربي فقد وجه إليه الخطاب في تقديمه لرحلاته، لتصبح الكتابة عبارة عن رسالة موجهة للآخر، يترجم فيها الرحالة ما يجول في فكره، راجيا أن يحقق ما أراد من خلال قارئه.

5. المرأة :

تعد المرأة طرف اجتماعي، منتم إلى مجتمع له خصوصياته ومميزاته، الناشئة عن طبيعة الأفراد المتعلقة بأفكارهم وعقائدهم وأعرافهم، ونجد المرأة الأندلسية أو الإسبانية، لها مميزات خاصة، لكننا إذا تفحصناها في رحلة الريحاني، لألفيناها تتسم بالقلة، ولا ندري عدم إسهابه في وصفها، بل نجده اهتم بوصف المدن والحالة السياسية، والتاريخية للبلاد، إضافة إلى بعض العقائد والأعراف الاجتماعية.

وإذا تفحصنا طبيعة المرأة الأندلسية في وسط مجتمعها، الذي يعتبر مزيجا من الأعراف والأجناس، نجد فيه الاسباني المسلم والنصراني، ونجد اليهودي، كما يمكننا أن نجد ما هو من أصل عربي، العرب الذين بقوا مختفين خوفا من محاكم التفتيش، التي كثر بطشها وطغيانها وحقدها على المسلمين.

يخبرنا الرحالة عن صورة للمرأة التي تعمل كبائعة في متجر يقول: ((وكنا ندخل المخزن بمدريد فنسأل عن حاجة ما، فتحضرها البائعة باسمة، أو البائع ساكنا دون أن يفوها بغير كلمة السعر))[30]، هي صورة للمرأة تكونت في ذهن الرحالة رابطا إياها بواقعها

الاجتماعي، ((إن صورة المرأة كذات وهي صورة مباشرة بالأساس، هي في مجملها الصورة الخيالية التي تتكون في عقل الكاتب والمجتمع معا، مستمدة مادتها من المقروء والمسموع والمرئي والمعيش، ومن الذاكرتين القريبة والبعيدة، إنها تلك الصورة التي تعشعش في اللاوعي عند مجموعة من الناس حتى إذا ما نضج فيها النبوغ عند مبدع ما، نحتها بما أوتي من إمكانات وتكوين، وأخرجها في قالب خاص به بعد أن ألفها في غلالة من خياله))[31].

كما شابهت المرأة الاسبانية، المرأة العربية وقد يكون ذلك حنينا إلى أصالتها، فهن متمسكات بعادتهن وتقاليدهن، وقد حدد الريحاني هذا في الماضي القريب خلال زيارته الأولى لاسبانيا سنة 1917، حيث يقول: ((قلت إن الاسبان متشبثون بالتقاليد مقيمون على ما ورثوا من عقيدة وعادة، فيجب علي أن أقول كذلك إتماما للحقيقة في جميع نواحي الحياة، إن في اسبانيا روحا جديدية وخصوصا في المدن الكبرى، وفي السياسة والاجتماع، كنت في اسبانيا منذ ربع قرن في السنة الثالثة من الحرب العظمى، وكنت في ارتيادي المقاهي أعجب لوجهها المذكر ولجوها العريق في التذكير، ما كنت أشاهد امرأة في مقهى، وقلّما كانت ترى ماشية في الشارع، دون خادمة أو وصيفة لها، اللهم إذا لم تكن من إحدى الطبقتين الوسطى أو العليا، كانت المرأة اسبانية عربية))[32].

يواصل الرحالة مخاطبة المتلقي بما يراه مناسبا، مركزا على شد انتباهه، فهو يريد ((تحقيق تواصل موفق مع متلقيه، لأن البداية بالنسبة للرّحالة في نص رّحلته هي رهان عبره ستتأسس مصداقية النّص، ويتحقق الإغواء، وشدّ المتلقي))[33]، فأهم عنصر في النص الرحلي هو الإخبار وتقنية إرسال الخبر فالرّحالة يعمل على هذه التقنية، واضعا نصب عينيه المتلقي، وها هو ذا يسوق خبرا آخر رامزا إلى صورة فنية ليترك للمتلقي طريقة الربط والتأويل: ((ورأينا النساء في ساعة الغروب يحصدن بالمناجل قمح السنة ويذكرنك بصورة ميليه المشهورة))[34]، يشير الرحالة إلى صورة ميليه، فهو يستعين بذاكرته ليقرب الصورة للمتلقي الذي يرى بعين الرحالة، لتصبح الذاكرة ((هي المادة الأولية التي تختزن في الذهن

وتتفاعل مع استيهامات وخيالات، وصور مسبقة عن الأشياء، فتتشكل الصورة التي تجيء مخصبة، وثرية حينا، وجافة تقريرية باهتة حينا آخر))[35].

وقد نجد المرأة تخضع للتغيرات الطارئة على المجتمع، فإنها تتطور بتطوره وتتخلف بتخلفه، وحينما نرى تغير المجتمع الاسباني خلال القرن العشرين، والتطور الحاصل في النظام السياسي، قد مس هذه المرأة فأصبحت مشاركة في الأعمال الاجتماعية والسياسية، محافظة في ذلك على حشمتها وتقاليدها، ولم تسهب في مرحها ولهوها كالأمريكية أو الأوروبية، ((أما اليوم فالمرأة الاسبانية أمست أوربية، وهي تشارك في الأعمال الاجتماعية والسياسية كالرجال، ومع ذلك فهي لا تزال على شيء كثير من حشمة المرأة العربية، وهذا ما يزيد في فضلها وفتنتها، المرأة الاسبانية مهما يكن اهتمامها بشؤون بلادها السياسية والاجتماعية، لا تنطلق في زهوها ومرحها مثلا انطلاق الأمريكية أو الفرنسية، ولا تسترسل في حريتها الفكرية والنفسية استرسال الإنكليزيات))[36].

يحاول الرحالة هنا وضع مقارنة بين المرأة الاسبانية والمرأة العربية والمرأة الأوروبية الأمريكية والفرنسية، فيضعها بين ثقافات متباينة بين حشمة العربية ووقارها، وبين زهو الأمريكية ومرحها، فهي قريبة من العربية في وقارها، ومشابهة للأوروبية في عملها الاجتماعي والسياسي.

ختاما يمكن القول أن الرحالة يسلك مسلك المصلح الرامي إلى التغيير فيعمد للنظر إلى الحاضر محللا مختلف الظواهر الاجتماعية، فيقر بما يراه مناسبا ويشير إلى ما يراه مخالفا راميا إلى الإصلاح ((طبعا ما كان الريحاني مجرد حالم! فهو مفكر رؤيوي وأديب ملتزم شغلته الهموم الإنسانية، وشغل العالم من حوله بفكره المجدد، بالقضايا التي عالجها وبالحلول التي طرحها لإحداث التغيير، ما كان الريحاني مجرد مثقف، بل شخصية مفكرة ومثقفة فاعلة متميزة))[37].

إن النص الرحلي يعد مصدرا من مصادر المعرفة، التي لا يستطيع أي باحث الاستغناء عنها، فهي مادة جمعت الأدبي والثقافي والاجتماعي والسياسي والديني، مخاطبة في ذلك

الذات والآخر، محاولة وضع توازن بينهما، هذا ما أراد الريحاني تحقيقة في رحلاته وحتى في أدبه، فقد ركز على البعد الإنساني في رحلاته محاولا تقريب الأفكار وفتح مجال للحوار بين الثقافات وبين الأديان محاولا تحقيق الوحدة الانسانية.

الإحالات:

1 - لفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، د.ت، د.ط، ص 17.

2 - أمين الريحاني، نور الأندلس، ص 743.

3 - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، التجنيس آليات الكتابة خطاب المتخيل، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط.1، 2006، ص 323.

4 - أمين الريحاني، نور الأندلس، ص 715.

5 - بوشعيب الساوري، الرحلة والنسق، دراسة في إنتاج النص الرحلي رحلة ابن فضلان نموذجا، دار الثقافة الدار البيضاء، ط.1، يناير 2007، ص 181.

6 - أمين الريحاني، نور الأندلس، ص 727.

7 - المصدر نفسه، ص 610.

8 - المصدر نفسه، ص 732.

9 - أمين الريحاني ، نور الأندلس، ص 616.

10 - أمين الريحاني، نور الاندلس، ص 615.

11 - من كور شذونة بالأندلس، بينها وبين قلشانة خمسة وعشرون ميلاً، وهي على مقربة من البحر، يجود زرعها ويكثر ربعها، (الحميري، الروض المعطار، ص 340).

12 - أمين الريحاني، نور الأندلس، 617.

13 - المصدر نفسه، ص 636.

14 - حليفي شعيب ، الرحلة في الأدب العربي، ص 241.

15 - المصدر نفسه، ص 715.

16 - المصدر السابق، 625.

17 - أمين الريحاني، نور الأندلس، ص 721.

18 - صلاح فضل، أشكال التخيل من فتات الأدب والنقد، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان، ط.1، 1996، القاهرة، ص. ب.

19 - أمين الريحاني، نور الأندلس، ص 625.

20 - المصدر نفسه، ص 629

21 - صبري حافظ، الأدب والمجتمع، مجلة فصول المجلد 1، العدد 2، يناير 1981، ص 69.

22 - المصدر نفسه، ص 672.

23 - أمين الريحاني، نورالأندلس، ص 712.

24 - دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998، دمشق، ص 49.

25 - المصدرالسابق ، 715.

26 - علوش سعيد، مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، ط.1، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، دارالكتاب اللبناني، 1987، ص 482.

27 - أمين الريحاني، نورالأندلس ، ص 717.

28 - دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ترجمة غسان السيد، ص 52.

29 - أمين الريحاني، نورالأندلس ، ص 719.

30 - المصدرنفسه، ص 734.

31 - الرحالة العرب و المسلمون اكتشاف الآخر المغرب منطلقا و موئلا، مقال صورة المرأة في الرحلة المغربية إلى أوربا لسليمان القرشي، نشروزارة الثقافة الرباط، مطبعة النجاح الجديدة الدارالبيضاء، ط.1، 2003، ص 73

32 - أمين الريحاني، نورالأندلس، ص 735.

33- شعيب حليفي ، الرّحلة في الأدب العربي، ص 224.

34 - المصدرنفسه، ص 733.

35- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص 297.

36 - أمين الريحاني، نورالأندلس ، ص 735.

37 - الريحاني أمين و التجدد العربي، بحوث و مناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، مقال رؤية أمين الريحاني في حقوقية المرأة بين الو اقعي و المتخيل لد.حجارنجمة ص 131.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊